المبحث الرابع

التطبيق العملي للمنهج الإسلامي لعلاج مشكلة الفقر

التطبيق العملي للمنهج الإسلامي لعلاج مشكلة الفقر

أسفر التطبيق العملى للمنهج الإسلامى لعلاج مشكلة الفقر عن نتائجَ غيرِ مسبوقة فى التاريخ البشرى حتى الآن. حيث نجح الإسلام فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين فى استئصال الفقر وتحقيق الرخاء والأمن فى ظل من الحرية والعدل.

وقد سجل التاريخ العديد من النماذج الحية التى تدل على النجاح فى هذا المجال ، وقبل بيان بعض هذه النماذج ، تجب الإشارة إلى أن هذا الرخاء والأمن قد أخبر عنه، وبشَّر به رسول الله ﷺ قبل أن يتحقق فى الواقع العملى ، وأن كل ما يخبر عنه ، ويبشر به رسول الله ﷺ لابد وأن يتحقق ، لأنه وحى من الله سبحانه وتعالى كما ورد فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣: ٤] .

وهناك العديد من الأحاديث النبوية التى تنبئ بالغنى الذى سيفيض على الأمة فيضا فيمحو الفقر من المجتمع ، وذلك حين يستقر نظام الإسلام ، وتتوطد دعائمه فى الأرض ، وفيما يلى بعض هذه الأحاديث على سبيل المثال وليس الحصر :

أ - روى البخارى عن عدى بن حاتم الطائى قال : "إنه كان عند النبى ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر ، فشكا إليه قطع السبيل ، وكان عدى قد وفد على النبى ﷺ ليدخل فى الإسلام ، وخشى النبى ﷺ أن يفت فى عضده،

ويثبطه عند ما يرى من فقر أهله وضعفهم، وعدم انتشار الأمن فى ديارهم ، فألقى إليه بالبشارات المذكورة ترغيبا وتثبيتا ، فقال الرسول : يا عدى ... هل رأيت الحِيرَة ؟"

قال : لم أرها وقد أنبئت عنها.

قال : إن طالت بك حياة لَتَرَيَنَّ الظعينة: (المرأة المسافرة) ترحل من الحِيرة [1] حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله.

قال عدى : قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دُعَّار (قُطَّاع الطرق) طيئ الذين سعروا البلاد (أى أن عديًّا استبعد أن ينتشر الأمان إلى الحد المذكور ، وهو يعلم أن قُطَّاعَ الطرق من قبيلته من خوفوا العباد، وأوقدوا نار الفتنة فى البلاد).

وأكمل النبى ﷺ حديثه إليه فقال : "ولَئِنْ طالت بك حَياةٌ ، لَتَفْتَحَنَّ كُنوزَ كِسْرى".

قال عدى : كسرى بن هرمز ؟ !

قال : كسرى بن هرمز. ولَئِن طالت بك حياةٌ لَتَرَيَنَّ الرجلَ يُخْرِجُ ملءَ كَفِّهِ من ذهب وفِضة، يطلبُ مَنْ يقبَلُه منه، فلا يجدُ أحداً يقبله منه .

وقد أسلم عدى ، ورأى بنفسه ما بشَّر به النبى ﷺ ، قال عدى : فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله. وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز. ولئن طالت بكم حياة لَتَرَوُنَّ ما قال النبى ﷺ : "يُخْرِجُ الرجلُ مِلْءَ كَفِّه" يعنى ما بشر به من فيض الغِنَى وفُقدان الفقر.

---

(١) جاء في نهاية الحديث : تكرر ذكر الحيرة وهي بكسر الحاء : البلد القديم بظهر الكوفة، ومحلة معروفة بنيسابور.

ب- عن حارثةَ بن وهب الخُزاعي قال : سمعت النبي ﷺ يقول : "تَصَدَّقوا فإنه يأتي عليكم زمانٌ يَمْشِي الرجلُ بصدقته فلا يجدُ مَن يقبَلُها يقول الرجلُ : لوجئتَ بها بالأمس لقَبِلْتُها ، فأما اليومَ فلا حاجةَ لي بها".[1]

جـ- عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : "لا تقومُ الساعةُ حتى يَكْثُرَ فيكم المالُ فيَفيضَ ، حتى يهمَّ رب المال فلا يجد مَن يَقْبَلُ صَدَقَتَه ، وحتى يَعْرِضَه، فيقولَ الذي يُعْرَضُ عليه : لا أَرَبَ لي".[2]

د - عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال : "لَيَأْتِيَنَّ على الناس زمانٌ يطوفُ الرجلُ فيه بالصدقةِ مِنَ الذهبِ ، ثمُ لا يجدُ أحدًا يأخذُ مِنه".[3]

ولم يَمُرَّ زمنٌ طويلٌ حتى تحققَ هذا الغِنَى الذي بَشَّر به رسولُ اللهﷺ، حتى بلغ الأمرُ عدَم وجودِ من يستحقُّ الصدقةَ ، ونذكر في هذا المقام بعضًا مما سجله التاريخُ في عهدِ كل من عمرَ بنِ الخطاب، وعمرَ بنِ عبد العزيز :

أ - روى أبو عبيد في كتاب الأموال : "أن مُعاذَ بن جبل لم يزل بالجند إذ بعثه رسولُ الله ﷺ إلى اليمن ، حتى مات النبي ﷺ وأبو بكر الصديق ، ثم قدم على عمرَ بنِ الخطاب ، فرده على ما كان عليه ، فبعث إليه معاذ بثُلُثِ صدقة الناس، فأنكر ذلك عمرُ ، وقال : لم أبعثْك جابيًا ولا آخِذٌ جِزْية ، ولكن بعثتك لتأخذَ من أغنياء الناس ، فتردَّها على فقرائهم !! فقال معاذ : ما بعثت إليك بشيء وأنا أجد أحدا يأخذه مني – فلما كان العام الثاني بعث إليه شطر الصدقة (نصفها) فتراجعا بمثل ذلك – فلما كان العام الثالث بعث إليه بها

---

(١) الحافظ ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، حـ ٣ ، كتاب الزكاة ، دار الغد العربي ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، حديث رقم ١٣٤٥ ، ص ١٨١ .

(٢) الحافظ ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، المصدر السابق ، حديث رقم ١٣٤٦ ، ص ١٨١ . والأرَب: الحاجة .

(٣) الحافظ ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، المصدر السابق ، حديث رقم ١٣٤٨ ، ص ١٨١ .

كلها ، فراجعه عمر بمثل ما راجعه قبل ذلك فقال معاذ : ما وجدت أحدا يأخذ منى شيئاً".[١]

ب - عن عمرَ بن أُسيد قال : إنما ولى عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهرا ، ولا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجعَ بماله ، يتذكر من يضعه فيه فلا يجده ، قد أغنى عمر الناس. قال البيهقى بعد رواية هذا الخبر : فيه تصديق ما روينا من حديث عدى بن حاتم.[٢]

جـ - عن يحيى بن سعيد قال : "بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فاقتضيتُها، وطلبت الفقراء نعطيها لهم ، فلم نجد فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم".[٣]

د - كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن - وهو بالعراق - أن أَخْرِج للناس أُعطِياتِهم (رواتبهم ومخصصاتهم الدورية) فكتب إليه عبد الحميد : "إنى قد أخرجت للناس أعطياتهم ، وقد بقى فى بيت المال مال". فكتب إليه عمر : "أن انظر كل من أدان[٤] فى غير سفه ولا سَرَفٍ ، فاقضِ عنه". فكتب إليه: "إنى قد قضيتُ عنهم ، وبقى فى بيت المال مالٌ". فكتب إليه عمر : "أن انظر كل بكر (عَزَب) ليس له مال ، فشاء أن تزوجه فزَوِّجْهُ وأَصْدِق عنه " ادفع عنه صَدَاقَ زوجته ". فكتب إليه "إنى قد

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، مرجع سابق ، ص ٥٩٦.

(٢) يوسف القرضاوى ، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ . نقلاً عن : العينى ، عمدة القارئ ، حـ ١٦ ، ص ١٣٥ .

(٣) يوسف القرضاوى ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ . نقلاً عن : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٥٩.

(٤) أدان: اقترض فصار مدينًا.

زوجت كل من وجدت، وقد بقى فى بيت المال مال". فكتب إليه عمر : "أن انظر من كانت عليه جِزية (خراج الأرض) فضعف عن أرضه فأَقْرِضْه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا عامين".[1]

وفى هذه الرواية عبرة عظيمة ، فبعد أن أشبعت الحاجات الضرورية والعارضة ، أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز وَاليَه على العراق ، أن يوجه جزءًا من أموال الخِزانة العامة إلى زيادة الإنتاج ، عن طريق مساعدة صغار المزارعين من أصحاب الأرض على زراعة أرضهم وتحسينها ، وذلك بإقراضهم المال اللازم لذلك.

إن عمر بن عبد العزيز بهذا العمل ، قد أرسى مبدأ فى غاية الأهمية وهو أن الدولة وإن كان لها حق فى أموال المواطنين ، فإن عليها واجبا فى مساعدتهم على تنمية هذه الأموال بالوسائل المختلفة.

هـ -كتب والى البصرة إلى عمرَ بن عبد العزيز يقول : "إنه قد أصاب الناسَ من الخير خيرٌ، حتى لقد خَشِيتُ أن يَبْطَرُوا". فكتب إليه عمر : "إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار" ، رضى من أهل الجنة بأن قالوا :﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٧٤]. فمُرْ مَن قِبلَكَ أن يحمَدُوا الله.[2]

و -يعتبر " الوقف الخيرى " ظاهرة فريدة وغير مسبوقة فى التاريخ البشرى، وذلك أن الإسلام رغب فى عمل الصدقات خاصة " الصدقة الجارية " أى: الدائمة ، وجعل لها جزءاً متميزا عن غيرها من الصدقات ، لبقاء أثرها ودوام نفعها ، فكان ثوابها دائما باقيا لصاحبها بعد موته ما بقى نفعها.

---

(١) أبو عبيد ، الأموال ، مرجع سابق ، ص ٢٥٦.

(٢) يوسف القرضاوى ، مشكلة الفقر وكيف عالجها الأسلام ، مصدر سابق ، ص ١٤٨ . نقلاً عن : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٥٨.

ولم يترك أهل الخير من أصحاب الأموال حاجة من الحاجات الإنسانية إلا أوقفوا عليها جزءاً من أموالهم. حيث وجدت أوقاف شتى لليتامى واللقطاء، والمكفوفين والمُقعدين من أصحاب العاهات المختلفة، بل إن بعض الأغنياء وقف أموالا لعلاج الحيوانات المريضة وغير ذلك!.

وتُبين «وثائق الوقف الخيرى» تفاصيل كل ما يتعلق بالمال الموقوف، وكيفية إنفاقه، والقيام عليه من قبل المسئول عنه وهو ناظر الوقف، وربما يكون من الأفضل الإشارة إلى وثيقة واحدة من هذه الوثائق وهى " حُجَّةُ وقف مستشفى قَلاَوُون " ، وهذا نصها : «أنشئ هذا البِيمَارِسْتان (المستشفى) لمداواة مرضى المسلمين من الرجال والنساء، من الأغنياء الموسرين، والفقراء المحتاجين بالقاهرة وضواحيها، من المقيمين بها والواردين عليها، على اختلاف أجناسهم، وتباين أمراضهم وأوصابهم[1] ، يدخلونه جموعا ووِحْدَانًا، وشِيبا وشُبَّانا، ويُقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم لحين بُرئهم وشفائهم، ويصرف ما هو معد فيه للمداواة، ويفرق على البعيد والقريب، والأصيل والغريب من غير اشتراط لعِوَض من الأعواض.

ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف ما تدعو حاجة المرضى إليه من سُرُر - جريد أو خشب على ما يراه من مصلحة - أو لُحُف[2] محشوة قطنا، وطراريح محشوة بالقطن، فيجعل لكل مريض من الفرش والسرر على حسب حاله، وما يقتضيه مرضه، عاملا فى حق كل منهم بتقوى الله وطاعته، باذلا جهده وغاية نصحه، فهم رعيته، وكل راع مسئول عن رعيته.

ويباشر المطبخ لهذا البيمارستان ما يطهى للمرضى من دجاج وفراريج ولحم، ويجعل لكل مريض ما طبخ له فى "زبدية" خاصة به، من غير مشاركة لمريض

(١) الأوصاب: جمع وصب، وهو الوجع والمرض.
(٢) لحف : جمع لحاف.

آخر ، ويغطيها ويوصلها لكل مريض، إلى أن يتكامل إطعامهم ، ويستوفى كل منهم غَدَاءَه وعَشاءه ، ما وُصِفَ له بُكرةً وعَشِيًّا.

ويصرف الناظر من ريع هذا الوقف لمن يُنَصِّبُه من الأطباء المسلمين الذين يباشرون المرضى مجتمعين ومتناوبين ، ويسألون عن أحوالهم، وما يجد لكل منهم من زيادة مرض، أو نقص ويكتبون ما يصلح لكل مريض من شراب وغذاء أو غيره فى "دستور ورَقّ"[1] ويلتزمون المبيت فى كل ليلة " بالبيمارستان " مجتمعين ومتناوبين ، ويباشرون المداواة ويتلطفون فيها!!.

ومن كان مريضا فى بيته وهو فقير ، كان للناظر أن يصرف إليه ما يحتاجه من الأشربة والأدوية والمعاجين وغيرها ، مع عدم التضييق فى الصرف.....»[2]

هذه هى وثيقة وقف مستشفى قلاوون فى عهد المماليك، وهو عصر يتميز بالتخلف والانحطاط، فكيف كانت وثائق الأوقاف فى العصور الذهبية للإسلام، إن ما تضمنته هذه الوثيقة يدل على الوعى التام من قبل أصحاب الأموال بكل ما يحتاجه المرضى من علاج وطعام ورعاية سواء فى داخل المستشفى أو خارجه.

هذه بعض الأمثلة من التاريخ ، تبين صدق ما أخبر به رسول الله ﷺ وتحققه فى الواقع العملى بعد وفاته ﷺ، وأن تطبيق مبادئ الإسلام وتعاليمه قد أسفرت عن استئصال الفقر من ديار المسلمين. ولم يعد الفقر إلى بلاد الإسلام إلا بعد أن تولى حُكْمَهُم المستبدون، وملَكَ أموالَهم السفهاء، وأفسد دينَهم الجهلُ والابتداعُ. ولو طبقت هذه المبادئ العظيمة فى عصرنا الحالى لكانت النتيجة ذاتها التى تحققت سابقاً وهى استئصال شأفة الفقر نهائيا.

---

(١) الدستور: الدفتر، والورَق – بفتح الراء – الصحيفة البيضاء.

(٢) محمد الغزالي، ليس من الإسلام، ص ٢٤-٢٥، نقلاً عن الحجة الرسمية لوقف مستشفى قلاوون.